

الدعوة الإصلاحية في شعر معروف الرصافي

* على نظري

تاريخ الوصول: ٩٤/٤/١٧

** يونس وليئي

تاريخ القبول: ٩٤/٧/٢٢

*** سيدمر تضي طباطبائي

الملخص

في نهايات القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين، كان الواقع الاجتماعي والسياسي العراقي لا يحسد عليه أبداً فالبلاد تعاني البؤس والجهل وفقد الأمن وفساد الحكام العثمانيين معاناة شاملة. فيعتبر الشاعر العربي المعاصر معروف عبد الغني الرصافي (١٨٧٦-١٩٤٥م) وانياً بدور بارز نشيط في الساحة الأدبية والثقافية وجاء شعره ملتزماً دينياً واجتماعياً وسياسياً، فكثير من أجمل قصائده تتحدث عن المشاكل الإجتماعية كالبؤس وتفشي الجهل والخرافة في قناع الدين وعدم الحرية للجماهير وللمرأة بشكل خاص. وهو ملتزم اجتماعياً لتقبيح الجهل والبؤس والتعسف على المرأة في شعره، ويدعو دعوة واسعة تشمل الناس كلهم إلى السلم والمؤاخاة وإلى نبذ الأضغان والتخاذل وينهض نهضة حرّ أبي.

الكلمات الدلالية: الشعر العربي المعاصر، حرية النساء، الحرية السياسية، الجهاد، كسب العلم.

المقدمة

اتسعت دائرة البحث في غاية الأدب، وكثر الكاتيون والقائلون بوجوب نهوض الأدب بمهمة الإصلاح، ومحاولة النهوض بالأمة وحملوا الأدباء تبعة التخلف الاجتماعي الملحوظ. وعبر النقاد عن آمالهم في أن يتجه الأدباء اتجاهها اصلاحيًا يجارى نهضة الأمة ويتابع خطواتها في سبيل التقدم، بل يرسم لها سبيل التقدم (طبانة، ١٩٨٥: ١٣٧).

الأديب في العصر الحاضر كان صورة ناطقة لعصره وأدبه كمرآة تعكس الحوادث السياسية والثورات الاجتماعية. والأدب في عصرنا هذا وثيق الصلة بالحياة اليومية والقضايا الوطنية، ولقد أخذ الأدب العربي الحديث يعبر عن وعي الأمة العربية، ويصبح وجهًا من وجوه الإتصال فإذا ما طالب الشعب بالحرية وقام مناضلاً في وجه المستعمر، كان الأدب أول عدة من عدد النضال يمكننا القول إن أبرز نزعة ميزت الأدب الحديث هو نزعته القومية الوطنية، والنزعة الثانية هي نزعته الإجتماعية الإصلاحية. فقد رافق استيقاظ العرب من سباتهم حركات اجتماعية تبغى الإصلاح الاجتماعي (الركابي، ٢٠٠١: ٣٠٤).

والشاعر العراقي معروف الرصافي هو من أوائل الشعراء الذين اهتموا بهموم الشعب وطموحاتهم وتحدثوا عن القضايا الوطنية والاجتماعية والسياسية، لأن الرصافي نشب في بيئة مليء بالفقر والحرمان، وأحوال هذه البيئة دعتة إلى الاهتمام بقضايا المجتمع ومشاركة آلامه. هو في كثير من قصائده أظهر مشاكل المجتمع وعالجها وسعى أن يجد طريقة لحلها، الرصافي في شعره داع يدعو الناس إلى إصلاح المجتمع ويريهم طرق الإصلاح. كان المجتمع العراقي في زمن الرصافي يتألم من الفقر، والجهل، والاستعمار، والخضوع أمام الأعداء، وتقييد المرأة، و... لهذا هو يشجع الناس على مكافحة هذه المشاكل.

يرتبط اسم الرصافي بالأحداث السياسية في تاريخ العراق في العقود الأولى من القرن العشرين. ويوجد في شعره خط مستمر من التطور في الأفكار والعلاقات السياسية أكثر مما يوجد لدى الزهاوي. طبيعة الرصافي كانت أبية فلم يستطع التسوية عموماً في المواقف التي لا تليق ولذلك عرف في حياته شيئاً من الفقر والنفى والبطالة. وكانت تقلباته السياسية بين الحين والحين تحدث غالباً بسبب طموحه إلى المناصب، وهو أمر مألوف لدى تقليدي لدى الشاعر (الجيوسي، ١٩٩٦: ٢٥٠).

خلفية البحث

حتى الآن دراسات عديدة أجريت حول *الرصافي* وشعره؛ منها «معروف الرصافي ونزعتة الاجتماعية إلى المرأة والفقير» (١٣٩٠ش) لأبوالفضل رضايي وعبد الله شفيعي، و«معروف الرصافي محلل اجتماعي للفقير والحرمان» (١٣٨٩ش) لإسماعيل نادري، و«الالتزام السياسي في شعر معروف الرصافي» (١٣٨٤ش) لمنصورة زركوب، و«الالتزام في شعر محمود عبدالغني الرصافي» (١٣٩٢ش) لمحمود شكيب أنصاري، لكن مقالتنا هذه تختلف عنها لأن هذه الدراسات لم تعالج الدعوات الإصلاحية في شعر *الرصافي* خلافا لمقالتنا هذه التي عالجت هذا الموضوع معالجة شاملة، بل تطرقت إلى بعض موضوعات كالفقير والمرأة فقط.

الدعوة الإصلاحية في شعر معروف الرصافي

الرصافي هو شاعر كان كثير الإهتمام بالشؤون السياسية والاجتماعية، وكثيراً ما يتحدث في شعره عن هذه القضايا باحثاً عن طريق لحلّ مشاكل المجتمع. الشعر لدى *الرصافي* له مهمة خاصة وهي إيقاظ الناس عن غفلتهم وإخراجهم من الجمود إلى الحركة والعمل باثارة عواطفهم، لهذا نرى أن الشاعر في شعره يدعو الناس إلى ما يغيّر أوضاع المجتمع وأحوال الناس يحلّ المشاكل، وهو:

أ. كسب العلم

يرى *الرصافي* أن السبب الرئيسي في تخلف الشرقيين عامة والعرب خاصة هو انتشار الجهل لأنه عمى يقضى على البصيرة ويخنق الطموح، أما العلم فهو نور يهدي وفكر يبديع. وينهض *الرصافي* نهضة حرّ أبي، فيفضح الحال، ويندد بالجهل. في رأيه الجهل موت الرصافي يريد الحياة لأمتة فيشجع على طلب العلم. والعلم عنده يضمن الحياة الغريزة، ويرفع الإنسان إلى مستوى الإنسانية ويفتح له أسرار الوجود، ويجعل طاقات الطبيعة بين يديه، فيخترع وينجز ويكشف المجهول، وبالعلم تزدهر الأوطان ويرتفع للحضارة بنيان. *الرصافي* قد سيطر على نفسه هاجس العلم سيطرة كاملة، فهو لا يدع سانحة من سوانح الكلام، وهو يرى في الدعوة إليه إخلاصاً للوطن وإخلاصاً للشعب (الفاخوري، ١٩٨٦: ٤٨٩).

العلم يبني وينهض ويسير بالمجتمع نحو درجات الكمال ويرقى بالشعوب؛ فهو المصباح المنير الذي يبدد الظلام ويقود الناس إلى التحرر من نير العبودية، بالعلم تشاد الحضارات وتبنى الأمجاد. وكذلك *الرصافي* يرى أن العلم ليس هو سبب تقدّم الحضارات الحالية فقط، بل هو سبب تقدّم الحضارات السابقة أيضاً، إلى العلم على أنه هو سبب نهضة الأمم وليس سواه، والعلم هنا بمعنى العلوم المعاصرة التي نمت في الغرب وحققت له نهضته. العلم في رأي *الرصافي* هو سبب الهدى والرشد والعلو، وكسب العلم وتحصيله سبيل النجاة والحياة السعيدة. بالعلم يعتز الذليل ويقوى الضعيف ويغنى الفقير ويسرّ الحزين، الشاعر يشبه من لا يبنون المدارس ولا يطلبون العلم ولا يثابرون على كسبه بالميت ويشبه ثيابهم بالكفن وبيوتهم بالقبور:

كفى بالعلم في الظلمات نورا	يبين في الحياة لنا الأمورا
فكم وجد الذليل به اعتزازا	وكم لبس الحزين به سرورا
تزيد به القول هدى ورشدا	وتستعلى النفوس به شعورا
إذا ما عقّ موطنهم أناس	ولم يبنوا به للعلم دورا
فإن ثيابهم أكفان موتى	وليس بيوتهم إلا قبورا

(الرصافي، ٢٠٠٦: ٩٢)

الرصافي يأمر بتعميم التعليم والتثقيف ويحكم ببناء المدارس وفتحها للامة لأن التعليم آنذاك كان يختص بالموسرين والأثرياء والفقراء كانوا محرومين من التعليم. العلم عند *الرصافي* هو وسيلة التقدم والترقى والإزدهار وبه تكسب المعالي وتحلّ المشاكل والصعاب. وهو يدعو إلى اقتران العلم بالعمل ويقول لا توجهوا كل اهتمامكم إلى القول النظري بل وجهوا عنايتكم إلى الشؤون العملية، كالعلوم التطبيقية التي تفيد في ترقية الزراعة والصناعة والتجارة وما إليها، لأن العلم إذ لا يقترن بالعمل لا ينتفع:

أبنوا المدارس واستقصوا بها الأملأ	حتى نطاول في بنيانها زحلا
لا تجعلوا العلم فيها كل غايتكم	بل علّموا النشء علما ينتج العملا

(المصدر نفسه: ١٣٦)

العلم يحفظ الانسان إمام الجهالة والأوهام ويصونه في المشاكل والصعوبات، بحيث إن *الرصافي* شبه معهد العلم بالحصن الأبلق - هو حصن معروف للسموأل بن عادي اليهودي

الشاعر الجاهلي بأرض تيماء من بلاد العرب، وهو حصن كان يعزّ على من رامه ويطول-
وفضّله على ذلك الحصن بالقول إن معهد العلم أمنع وأحرز من الحصن الأبلق.
العلم يرى الانسان سبيل النجاح والسعادة ويقيه من الفقر والذل ويلبسه العزة والكرامة.
وبالعلم تتحقق الآمال وتنال الأغراض والأهداف وإن ظنّها الناس مستحيلة وبعيدة:

معهد العلم وهو حرز يفوق الـ	ـأبلى الفرد منعة وحراره
حبذا العلم يكسب المرء عزّاً	ويقيه في عيشه إعوازه افتقاره
وإذا العلم فاه يوماً بوعد	ذهب اليأس أملاً إنجازه

(المصدر نفسه: ١٤٠)

الرصافي يحثّ الناس على كسب العلم والمثابرة على طلبه وعلى بذل المال في سبيله،
هو يفضّل العلم على المال لأنّ المال ينفد ويفنى ولا يخلد لصاحبه خلاف العلم الذي
يكون سرمداً.

العلم ينجي الانسان في المهالك والمعارك ويريه سبيل النجاة، وسلاح العلم يغني
الانسان عن سائر الاسلحة لأنه أقوى وأنفع. الشاعر شبه الشاعر العلم بالنور ثمّ انصرف
وعدل عن رأيه وفضّل العلم على النور، لأنّ النور يظهر الطريق وإن كانت صحيحة أو
غيرها وينفع من عنده قدرة البصيرة فقط لكن العلم يظهر طريق النجاة والسعادة، وهداياته
وإرشاده عام ويهدي ويرشد من يجتهد به وإن كان أعمى أو بصيراً:

وإن للعلم في العلى فلكا	كل المعالي تدور في قطبه
وابذل له ما ملكت من نشب	فالعلم أبقى للمرء من نشبه
لا تتكل بعده على نسب	فالعلم يغني النسيب عن نسبه
من تخذ العلم عدّة لوغى	أغناه عن درعه وعن يلبه
العلم كالنور بل أفضله	ما أفقر النور أن يشبّه به

(المصدر نفسه: ١٤٢)

ب. حرية النساء

كانت تعيش المرأة العراقية في أوائل القرن العشرين في حالة اليأس والجهل والحبس.
في بداية هذا القرن كان ينادى البعض بحرية المرأة كقاسم/أمين (يوسف، ١٩٦٠: ٢٥٢)؛

ومارس الرجل الشرقى تسلطه وسطوته على المرأة التي حكم عليها أن تعيش تحت نير العبودية عبر آلاف السنين، ومع بداية القرن العشرين ظهرت دعوات تطالب بتحرير المرأة. ولعل *الرصافي* هو أول شاعر عربي خصص كثيراً من شعره بالمرأة مما كان له أثره في الحياة الإجتماعية وفي بث الوعي وكشف الحجب بصراحة متناهية ومن حقه أن يتوج في العشرينات على أنه شاعر المرأة وناصرها وحامل لواء تحريرها (العبطة، ١٩٩٢: ٥٧).

ومعروف *الرصافي* كان من الشعراء الذين وقفوا إلى جانب المرأة ودعوا إلى تحريرها، ولعب بقصائده وأفكاره دوراً متميزاً ومنفرداً في دفاعه عن المرأة في مجتمع ذكوري وذهنية مطالباً برفع الحيف والظلم الواقع عليها. هو جعل باباً من أبواب ديوانه حول المرأة وسمّاه «النسائيات» وتناول فيه عدة قصائد مدافعاً عن المرأة وحقوقها في الأسرة والمجتمع. هو في هذا الباب يتحدث عن المرأة الشرقية عامة والعربية خاصة عن موقعها في المجتمع وعن اضطهادها وعمّا يجب أن تتخلص منها من العادات الموروثة والتقاليد القديمة، وعمّا يجب أن يتوفر للمرأة العربية من الاحترام والمكانة المرموقة والشأن و... يطالب *الرصافي* في شعره للمرأة:

عمل المرأة في المجتمع

ينظر إلى المرأة في المجتمع العربي على أنها إنسانة ناقصة عقل والمراد بهذه النظرة الاحتقار والتقليل من شأن المرأة، وحرمانها من الإسهام في النشاطات الاجتماعية؛ وينظر إليها بوصفها إنساناً ناقصاً لا يستطيع العمل في المجتمع، و*الرصافي* يشكو هذه الحالة ويدعو المرأة إلى النشاط والعمل في المجتمع وعدم انفصاله عن الجمع، ويقول:

وإني لأشكو عادة في بلادنا رمى الدهر منها هضبة المجد بالصدع
وذلك أنا لا تزال نساؤنا تعيش بجهل وانفصال عن الجمع

(المصدر نفسه: ٤٦٥)

الشاعر يقول إن المرأة العربية ضيّع حقها واستصغر شأنها ومقامها، وألزمها العرب الحبس والثواء في البيت، وهي عندهم كمتعة وإن كان لا يباع ولا يشتري، ليس لها اختيار وانتخاب ولا تستطيع أن تشارك في الأمور ومنعت من الشؤون الاجتماعية، حيث لا تستطيع أن تؤدي الدور الذي يختص بها بل الرجل يؤدي دورها، مثلاً بعد دخول الفن

إلى العراق في عشرينات القرن العشرين لا يسمح للمرأة بالتمثيل وممارسة العمل الفني، وفي رأى العرب ليس ممارسة الرجل دور المرأة بعار بل هذا العمل أفضل من أن تحضر المرأة في المسرح ومن أن تؤدي دورها بنفسها:

لقد غمطوا حقّ النساء فشدّوا
عليهن في حبس وطول ثواء
قد انتبذوا عنهنّ في العيش جانبا
فما هنّ إلا متعة من متاعهم
وما العار أن تبدو الفتاة بمسرح
وإن صنّ عن بيع لهم وشراء
تمثل حالي عزة وإباء
(المصدر نفسه: ٤٦٣)

رفع الحجاب

الرصافي في شعره يدعو المرأة إلى رفع الحجاب لأنه يرى في الحجاب عادة وليس ديناً، والحجاب عنده رمز لتسلط المجتمع الذكوري، وهو وسيلة تجعل المرأة أداة في يد الذكر. والدعوة إلى رفع الحجاب والسفور دعوة للخروج من العادات ودعوة لرفض تسلط الذكر على الأنثى وليست دعوة إلى الإنحلال والفسق وتقليد الغرب؛ *الرصافي* يدعو إلى تحرير المرأة من الفكر الذي يحرمها الحياة ومن القيود التي تمنعها أن تكون حرة ومختارة. وهو لا يقصد برفع الحجاب محاربة العفاف والشرف وكفاحهما بل يدعو إليهما، هو يرى أن يكون الحجاب في العلم، والحياء في الأدب فيحارب السلطة الذكورية بردّ فعل رمزي في المقابل وهي الدعوة لخلع الحجاب الذي لا يعنى غطاء الرأس فقط بل يعنى الجهل وعوائق التقدّم:

تركوا النساء بحالة يرثى لها
وقضوا عليها بالحجاب تعصبا
شرف المليحة أن تكون أديبة
وحجابها في الناس أن تتهدّبا
والوجه إن كان الحياء نقابه
أغنى الفتاة الحى أن تتنقّبا
(المصدر نفسه: ٤٦٨)

مع أن *الرصافي* ينقد الرجال المسلمين المعاصرين له لكنه لا يرفض المبادئ والعقائد الإسلامية أبداً؛ بل يعتقد أن الرجال المسلمين قد ذهبوا في الطريق الخطأ (مريدن، ١٩٨١: ٧٨) ويقول حول هذا الأمر:

وأكبر ما أشكو من القوم أنهم
يعدّون تشديد الحجاب من الشرع
(الرصافي، ٢٠٠٦ م: ٤٦٣)

و يقول أيضا:
نَحْنُ السُّفُورِيِّينَ أَعْلَمُ بِالَّذِي
أَيُّكُونُ مَا شَرَعَ النَّبِيُّ مُحَمَّدٌ
حَتَّى رِجَالُ الصِّينِ تَحْتَرِمُ النِّسَاءَ
كَلَّا وَلَكِنْ عَادَةٌ هَمَّجِيَّةٌ
شَرَعَ النَّبِيُّ مُحَمَّدٌ مِنْ دِينِ
شَيْئاً يُخَالِفُ شَرْعَةَ التَّمْدِينِ؟
أَفَنَحْنُ نَنْقُصُ عَنْ رِجَالِ الصِّينِ؟
جَعَلْتُمْ حَرْباً لِكُلِّ حَسِينِ
(المصدر نفسه: ٦٢٠)

كسب العلم

الشاعر معروف الرصافي يدعو إلى تحرير المرأة من قيود الجهل والامية والتخلف، ومما
يمنعها من التعليم والثقيف معتبرا تعليم المرأة هو مفتاح تقدم وتطور المجتمع. في رأى
العرب العلم لا يناسب الفتيات العفيفات وأن الجاهلات المحبوسات في دُورهن أعفّ نفساً،
وخضوع المرأة لهذا الخطاب معناه جلوسها في البيت:
وقالوا الجاهلات أعفّ نفساً
عن الفحشا من المتعلّمات
نرى جهل الفتاة لها عفافاً
كأن الجهل حصن للفتاة
(المصدر نفسه: ٤٧٢)

الحرية فى الزواج

المرأة فى المجتمع العربى ليس لها اختيار حتى فى أمر الزواج وهى مرغمة فيه،
وتساق إلى بيت زوجها وإن كان زوجها رجلا كبير السن بسبب المال الذى يدفعها إلى
أهلها، أو بعبارة أخرى يبيع الآباء بناتهم لأجل المال.
لكن الرصافي فى شعره يطالب حرية المرأة فى أمر الزواج وأن تكون مختارة فيه،
ويدعو المرأة إلى رفض الزواج إذا كرهته وإن سخط أبوه أو وليه، لأن فى رأيه الزواج مبنى
على الحب والغرام ولا على الإكراه والارغام:
ظلموك أيتها الفتاة بجهلهم
إذ أكرهوك على الزواج بأشيبا

طعموا بوفر المال منه فأخجلوا
فإذا رفضت فما عليك برفضه
إن الكريمة في الزواج لحرّة
بفضول هاتيك المطامع أشعبا
عار وإن هاج الولي وأغضب
والحر يابى أن يعيش مذنباً
(المصدر نفسه: ٤٦٧)

المساواة بين المرأة والرجل

للرصافي أشعار كثيرة حول المرأة كأكثر الشعراء المعاصرين ولكنه يمتاز عن أولئك الشعراء بدنه لاحظ بعينه الفاحصة، وذهنه الذكي وغيرته على أبناء وطنه وقومه، لاحظ الحالة الاجتماعية المنحطة للمرأة العراقية والعربية وجهلها وحجابها ونظرة الرجال إليها فشنها حرباً شعواء لا هوادة فيها وهدنة على الجامدين وعلى رجال التربية والتعليم؛ مطالباً بانصافها ومساواتها التامة مع الرجل لتتم سعادة المجتمع (رضايي، ١٣٩٠: ١٢٩).

المرأة تعيش ذليلة خاضعة، وهي كأداة في يد الرجل يلعب معها كما يريد وهي عنده كمتاع يستطيع بيعها واشترائها كأموال أخرى. والمرأة في المجتمع العربي لا تستطيع الدفاع عن نفسها وأخذ حقوقها وهي محكومة دائماً، ويسلب الرجال حقوقها ويحبسونها في البيوت ويمنعونها من الخروج ويظلمونها ويعاملون معها كما يشاؤون وينظرون إليها نظرة الاحتقار والتقليل قائلين إن الدين يفضل الذكر على الأنثى:

ما أهون الأنثى على ذكراننا
ضعفت فحجتها البكاء لخصمها
هي متعة المستمتعين وليتها
فلقد شجاني ذلّها وخضوعها
وسلاحها عند الدفاع دموعها
كانت لزاماً لا يجوز مبيعها
(الرصافي، ٢٠٠٦: ٤٧٨)

وله أيضاً:

أأمّ المؤمنين إليك نشكو
تخذنا بعدك العادات ديناً
وقالوا شرعة الإسلام تقضى
مصيبتنا بجهل المؤمنات
فأشقى المسلمون المسلمات
بتفضيل الذين على اللواتي
(المصدر نفسه: ٤٧٢)

كسب المجد

الرصافي في شعره يوجه نصائح كثيرة إلى أبناء مجتمعه، النصائح التي تنبع من تجربة عميقة في فهم الحياة، وإحدى هذه النصائح هي كسب المجد. هو في شعره يتذكر أن الإنسان مهما طال عمره لا بد أن يقضى نحبه ذات يوم، وما يبقى دائما ولا يفنى هو المجد والشرف، فلذا يطلب من أبناء مجتمعه أن يسعوا ويجتهدوا لكسب المجد معتبرا إن المجد الحقيقي هو ما يكتسبه الإنسان بنفسه وليس ما ورثه من آبائه:

تبقىّ فما أنت بالخالد ولا حادث الدهر بالراقد
فخلد بسعيك مجدا يدوم دوام النجوم بلا جاحد
وما الحمق إلا هو الاتكال على شرف جاء من والد

(المصدر نفسه: ٢٢٤)

الشاعر يحث الناس على العمل الجادّ ويحذرهم من الفتور معلناً إن ما يكتسبه الإنسان من المجد والعلاء دون السعي والإجتهد يسهل فقداً وزواله:

ليس للمرء أن يعيش بلا كدّ وإن كان من عظام الرجال
كلّ مجد يبني على غير سعي فهو مجد مهتد بالزوال

(المصدر نفسه: ٢٥٠)

الرصافي يرفض التناقل والتكاسل ويدعو إلى الحركة والنشاط قائلاً على الإنسان أن لا يقنع بالقليل، ولا يكتف بالضيئيل بل عليه أن يروم المعالي والأهداف الكبيرة، ويعتقد أن اكتساب المعالي وتحقيق الأهداف لا يؤخذان بالفنوط والتناقل بل يستدعيان المساعي والتضحيات في بعض الأحيان. في رأيه سبيل المجد صعب ووعر لا يجتازه إلا المخاطر في طلابه:

سر في حياتك سير ولم الزمان ولا تحابه
وإذا حللت بموطن فجعل محلّك في هضابه
واختر لنفسك منزلاً تهفو النجوم على قياه
ورم العلاء مخاطراً فيما تحاول من لبابه
والمجد ليس يناله إلا المخاطر في طلابه

(المصدر نفسه: ١١٧)

التعاون والاتحاد

دعوة الرصافي إلى الإتحاد هي دعوة واسعة تشمل الناس كلهم ولا تفرق بين أحد منهم، وهو يدعو الناس إلى السلم والمحبة والمؤاخاة وإلى نبذ الأحقاد والأضغان والتخاذل. الرصافي يرفض اختلاف أصحاب الأديان، ولا يميّز بين المسلم وغير المسلم في مختلف الأديان، وبين السني والشيعي في دين الإسلام. ويعتقد أن الذين يعيشون في بلد يجب عليهم أن يجتهدون لرقى بلدهم ويعملون لإزدهاره... مهما اختلفت الأديان. ويقول إن الذين يعيشون في بلد واحد ويتكلمون بلسان واحد ويؤمنون بالله لا دليل لاختلافهم ولا مانع من أخوتهم، معتقدا أن كلّ الأديان قد جاءت لتسعد الإنسان، وكما نعلم سعادة الإنسان في رهن سعادة وطنه وسعادة الوطن لا تتوفر إلا بإتحاد الناس وتعاونهم:

أما أن أن تنسى من القوم أضغان	فبينى على أسّ المؤاخاة بنيان
أما أن أن يرمى التخاذل جانبا	فتكسب عزا بالتناصر أوطان
علام التعادى لاختلاف ديانة	وإن التعادى فى الديانة عدوان
وما ضرّ لو كان التعاون ديننا	فتعمر بلدان وتأمين قطنان
إذا جمعنا وحدة وطنية	فماذا أن تعدد أديان
إذا القوم عمدتهم أمور ثلاثة	لسان وأوطان وبالله إيمان
فأى اعتقاد مانع من أخوة	بها قال إنجيل كما قال قرآن
كتابان لم ينزلهما الله ربنا	على رسله إلا ليسعد إنسان

(المصدر نفسه: ١٨٧)

الرصافي يدعو الناس إلى التعاون والإتحاد قائلا إن الناس كلبنات إذا اتحدوا يصيرون كبنيان، كلّ جزء منه يمسك بأجزائه الأخرى ويتعامل معها وبهذا التعامل والاستمساك يرسخ ويقوى:

رأيت الناس كالبنيان يسمو	بـدحجار تسبيح بالسبياع
فيمسك بعضه بعضا فيقوى	ويمنع جانبيه من التداعى

(المصدر نفسه: ١٣٠)

الشاعر يقول اليوم يسود الأوغال والجهلاء على الناس والعلماء، والناس خاضعون أمامهم وهذه الحالة تدوم حتى ينهض الناس ويتظاهروا ويتعاونوا:

قد انقلب الزمان بنا فأمست
فكيف تروم فى الأوطان عزا
ولم يك بعضنا فيها لبعض

بغات القوم تحتقر النسورا
وقد ساءت بساكنها مصيرا
على ما ناب من خطب ظهيرا

(المصدر نفسه: ٩٤)

الشاعر يعتقد أن الخبثاء قد سيطروا وتسلبوا على الناس وهم مستسلمون أمامهم ولا يقومون بأى عمل لإفتراقهم، ونار حميتهم لا تتقد لعدم إتحادهم. ثم يأتى بتشبيه يظهر به أهمية الإتحاد بين العناصر والأجزاء المكونة لكل شىء بالقول إن اشتعال النار بحاجة إلى إتحاد العنصرين ولا تشتعل النار إلا بإتحادهما وهما الأكسجين والكربون:

قد استحوذت يا للخسار عليكم
وما اتقدت نار الحمية منكم
ولولا إتحاد العنصرين لما غدا

شياطين إنس صال منكم مريدها
لفقد إتحاد فاستطال خمودها
من النار يذكو لو علمتم وقودها

(المصدر نفسه: ١٥٨)

يشير الشاعر فى البيت الأول إلى الآية القرآنية:

﴿سَتْحُوذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذُكْرَ اللَّهِ﴾ (المجادلة/١٩)

لكن الشياطين المذكورة فى البيت تختلف عما جاء فى الآية لأنها من الإنس.

الحرية السياسية

للرصاصى خلق متميز وهو تعشقه للحرية وكان هذا الخلق وحده هو الذى اختط له سبيل المجد وفتح له أبواب النبوغ (طبانة، ١٩٤٧: ٤٦).

يعتقد الرصاصى أن العصر الحديث عصر الحرية تنادت الشعوب للدفاع عنها، ونشبت الثورات لإعتلاء رايتها، وكانت الطريق المثلى فى رقى الإنسان الحديث، والطريقة التى لا يتطور الشعب بمعزل عنها؛ ولهذا كان الرصاصى شديد التمسك فى الكلام على الحرية، شديد الإلحاح فى توجيه الأمة العربية إليها، وقد سيطر الجهل على العقول واستبدت الطغيان العثمانى بالبلاد وسكانها، وكم أفواه أحرارها، وتبعه الاحتلال الغربى فكانت الحالة حالة كبت وضغط، وكان الرصاصى يتحرق لذلك، وينشد للناس أناشيد الحرية، فلا يترك ساحة إلا استفاد منها لتحريك الضمائر، وإيقاظ الكرامة الإنسانية. هو يعتقد أن لا معنى

للحرية إذا لم يستقل الناس بأنفسهم ولم يستطيعوا التعبير عن آرائهم (الفاخوري، ١٩٨٦: ٤٩٢)؛ يقول الرصافي في أهمية الحرية:

إذا لم يَعِشْ حُرّاً بِمَوْطِنِهِ الْفَتَى

فَسَمَّ الْفَتَى مَيْتاً وَمَوْطِنَهُ قَبْراً

(الرصافي، ٢٠٠٦: ٩١)

يعتقد الرصافي أن تحقق الحرية السياسية في العراق مرهونة بأمرين وهما:

الأول: رفض الإستبداد العثماني

الرصافي في عهد العثمانيين عارض السلطان عبد الحميد الذي تولى الحكم عام ١٨٧٦م وساءت أوضاع المجتمع في عهد حكومته. «هو أول شاعر جاء قومه بما يحبون، وصارحهم بما لا يحبون. لم يعرف للتقليد أو الخضوع للبيئة معنى لا في صناعته ولا في أفكاره. كان من شعره صيحات علمت على تقويض معالم الاستبداد الحميدي» (بطي، ١٩٢٣: ٦٧). الرصافي يدعو الناس إلى القيام أمام السلطان والدولة ويشجعهم على رفض الظلم والإستبداد، ويحضهم على أخذ حقوقهم قائلاً يجب أن تخاف الحكومة الناس لكن تغيرت الأوضاع، والناس يخافون الحكومة مع أن كل ما يكون للحكومة من الأموال والجنود والقوى ... يتعلق بالناس. وهو يرفض سيادة الأوغال والجهلاء على العلماء:

عجبت لقوم يخضعون لدولة

يسوسهم بالموبقات عميدها

وأعجب من ذا إنهم يرهبونها

وأموالها منهم ومنهم جنودها

(الرصافي، ٢٠٠٦: ١٥٧)

الشاعر يشكو انقيادهم وسكوتهم أمام الحكومة التي تظلمهم وتسلب حقوقهم واصفا حالهم وضعفهم أمامها إثارة لعواطف الناس للنهوض والقيام:

حَتَّام نَبَقَى لَعِبَةَ لِحُكُومَةٍ

دَامَتْ تَجَرَّعْنَا نَقِيْعَ الْحَنْظَلِ

تَنحُوبِنَا طَرَقَ الْبُورِ تَحِيْفًا

وَتَسُومُنَا سَوْءَ الْعَذَابِ الْأَهْوَالِ

هَذَا وَنَحْنُ مَجْدَلُونَ تَجَاهَهَا

كَالْفَأْرِ مَرْتَعِدًا تَجَاهَ الْخَيْطَلِ

(المصدر نفسه: ٢٢٨)

الثاني: مكافحة الإستعمار

في عام ١٩٤١م فرضت بريطانيا إنتدابها على العراق، بعد أن احتلته قواتها بعد الحرب العالمية الثانية وفصلته عن الدولة العثمانية (الحسني، ١٣٨٤: ٢٤٤). الرصافي يدعو إلى

استقلال العرب في الرأي والعقيدة والتفكير والقول والوسائل الإعلامية المختلفة وفي الثقافة والتربية والتعليم والفن. لذا يعتبر حرية الفكر هي أمّ الحريات وأن الأوطان لن تستقل في سياستها ما لم تستقل في تفكيره (شمس آبادي، ١٣٩١: ٦). وهو من الشعراء الذين قاموا أمام الاستعمار الإنجليزي وكافح الاستعمار وتطرق إليه في شعره وعالجه في عدة قصائد. من أشهر قصائده في الحرية هي قصيدة «الحرية في سياسة المستعمرين» التي يلجأ فيها الشاعر إلى أسلوب ساخر ليشرح القارئ بالمرارة، ويكتف لديه درجة الإحساس بالظلم والجور، ويهرب من الرقابة على المطبوعات. فالقصيدة سمّ دسّ في العسل، ظاهرها رحمة وباطنها عذاب (خورشا، ١٣٩٠: ٩٨).

ففي هذه القصيدة عرض الجوانب الوطنية والسياسية بصورة معاكسة، ومخالفة لما ألفه الناس في معالجة هذه الموضوعات. يخاطب الشاعر قومه ويقول اقبلوا ما قدّر لكم الدهر وارضوا نصيبكم في الحياة مهما كان ولا تسعوا لتغييره، وإذا ظلّمتم لا تحزنوا ولا تعبسوا واقبلوه بحفاوة، ولا ترفضوا الإهانة والاحتقار ولا تغضبوا ولا تسخطوا أمام من أهانكم بل اشكروه لأجل عمله، ولا تقطبوا الجبين أمام من ضربكم وصفعكم، ولا تبدوا عن آرائكم ولا تعبّروا عن وجهات نظركم بل أكدوا كلام الآخرين وأيدوا آرائهم مهما كانت:

وإذا ظلّمتم فاضحكوا	طربا ولا تنظلموا
وإذا أهنتم فاشكروا	وإذا لطمتم فابسموا
إن قيل هذا شهدكم	مرّ، فقولوا: علقم
أو قيل إن نهركم	ليل، فقولوا مظلّم

(الرصافي، ٢٠٠٦م: ٥٨٥)

هو في شعره يشير إلى أهداف انكلترا ومقاصدها من الإستعمار وعدم التزامها بالعهود والمواثيق، ويظهر مكرها وخدعها أمام الناس تنبيهها لهم وتحريضها لهم على رفض الاستعمار:

وليس الإنكليز بمنقذينا	وإن كتبت لنا منهم عهد
متى شفق القوى على ضعيف	وكيف يعاهد الخرفان سيد
ولكن نحن في أيديهم أسارى	وما كتبوه من عهد قيود

(المصدر نفسه: ٥٩٩)

الشاعر ينبّه الناس أمام الغرب ويذكرهم ما أسفر الغرب عن مظلمات ومصيبات وأضرار في الشرق، ويدعو الناس إلى إهمالهم الغرب وعدم اغترارهم أمام أفعال الغرب وأقوالهم وعهودهم قائلاً إننا سننهض أمام الغرب ونقاوم احتلاله فإما نصل إلى هدفنا ونستقلّ وإما نقتل في سبيل هدفنا:

دع الغرب ينعم في باله
ولا تسألنه بأفعاله
فنحن اغتررنا بأقواله
سنأبى عليه أشدّ الإباء

وإن لقي الشرق منه الكروب
فعهد التمدين عهد كذوب
ولكننا بعد هذى الحروب
فإما الفناء وإما البقا

(المصدر نفسه: ٦٣٢)

الإحسان

الشاعر معروف الرصافي يشكو من قومه فقدان المساواة بين الناس واختلاف طبقات المجتمع مشيراً إلى أن هذا الاختلاف يزداد كل يوم:

يا قومنا أين المساواة عندكم
وأين موثيق الأخوة إنني
فقد طال عنها في مواطنكم بحثي
أرى حبلها في كل يوم إلى النكت

(المصدر نفسه: ٥٩٣)

كثيراً ما عرض الرصافي للبوّس والبؤساء، والفقر والفقراء، حتى لُقّب بـ «شاعر البؤساء». فقال في حديث له «كانت مشاهد البؤس من أشدّ الدواعي عندى إلى نظم الشعر». ولمشاهد البؤس عنده أوصاف، والأوصاف مبنوثة في شتى قصائده وهي أبداً واقعية الصورة، قاتمها، ينشر الحزن والألم فيها انتشاراً شديداً، ويحاول الشاعر أن يجعلها في إطار مؤثر. وكثيراً ما نراه في القصائد يتوجه إلى الله طالبا الرحمة للبائسين، ويتوجه إلى الأغنياء طالبا الشفقة ومدّ يد المعونة إلى المعوزين (الفاخوري، ١٩٨٤: ٤٩٤):

أيها الأغنياء كم ظلمت
سهر البائسون جوعاً ونمتم
نعم الله ما إن رحمتم
بهناء من بعد ما قد طعمتم

من طعام منوّع وشراب
كم بذلتم أموالكم في الملاهي
وركبتم بها متون السفاه

وبخلتكم منها بحق الإله أيها الموسرون بعض انتباه

(الرصافي، ٢٠٠٦: ١٥٥)

الشاعر في هذه الأبيات يخاطب الأغنياء والموسرين ويشكو ظلمهم وعدم اهتمامهم بالفقراء والإحسان إليهم، ويوعدهم بالخسران والهلاك. *الرصافي* كان كثير الاهتمام بالإحسان ويرفع شأن المحسنين تشجيعاً للناس، ويعتقد أن للمحسن مقاما وشأنا لا نظير له قائلا إن كان بين الناس من يستحق العبادة هو الانسان المحسن، هو يعتبر الإحسان أفضل الأعمال وأحلاها:

لو كنت أعبد فانيا في ذى الدنا
وجعلت قلبى مسجدا لتعبدى
في مجتنى غرس الخليقة لم أجد
لعبدت من دون الإله المحسنا
سراً وفهت له بشكرى معلنا
غرسا سوى الإحسان حلو المجتنى
(المصدر نفسه: ٣٠٧)

الجهاد

الشاعر معروف *الرصافي* بعد خلع السلطان عبد الحميد عام ١٩٠٩ صار من مدافعي الحكومة العثمانية ضدّ الغرب، ويدعو أبناء أمته إلى الذود عن الحكم العثماني ودعا إلى مقارعة أعدائه (المقدسي، ١٩٨٨: ٦٨):

ألا انهض وشمر أيها الشرق للحرب
ولا تغتبر أن قيل عصر تمدن
ألست تراهم بين مصر وتونس
وقبل غرار السيف واسل هو ي الكتب
فإن الذى قالوه من أكذب الكذب
أباحوا حمى الإسلام بالقتل والنهب
(الرصافي، ٢٠٠٦: ٦٣٢)

وفي الحرب العالمية الأولى وقف كثير من الشعراء العرب مع الدولة العثمانية في قتالها ضد الحلفاء عندما نشأت تلك الحرب مثارين بعاطفتهم الدينية قبل كل شيء سواها، وقد انعكست هذه المؤازرة في القصائد الكثيرة التي نظمت آنئذ، ومن هؤلاء الشعراء معروف *الرصافي* الذى يمكن اعتباره من شعراء المجتمع الاسلامي (الدقاق، ١٩٨٥: ٤٢):

يا قوم إن العدا هاجموا الوطننا
واستنفروا لعدو الله كل فتى
فانضوا الصوارم واحملوا الأهل والسكنا
ممن نأى فى أقاصى أرضكم ودنا

واستنهضوا من بنى الإسلام قاطبة
واستقتلوا في سبيل الذود عن وطن
واستنكفوا في الوغى أن تلبسوا أبدا
من يسكن البدو والأرياف والمدنا
به تقيمون دين الله والسّنا
عار الهزيمة حتى تلبسوا الكفنا
(الرصافي، ٢٠٠٦: ٦٣٥)

نتيجة البحث

الرصافي افترض مهمة على عاتقه في شعره لإنقاذ الشعب وإيصاله إلى الكمال والسعادة، وهي دعوة الشعب إلى ما يصلح المجتمع ويغير الأوضاع ويحلّ المشاكل. هو في شعره يدعو إلى:

- ١- كسب العلم: لأن يسير بالمجتمع نحو درجات الكمال ويرقى بالشعوب فهو المصباح المنير الذي يبدد الظلام ويقود الناس إلى التحرر من نير العبودية.
- ٢- حرية النساء: *الرصافي* يطالب للمرأة الشرقية العمل في المجتمع وعدم انفصالها عنه، ورفع الحجاب، وكسب العلم، والحرية في الزواج، والمساواة بينها وبين الرجل.
- ٣- كسب المجد: لأن الآمال لا تحقق إلا بالعمل الجادّ ولا تكتسب المعالي إلا به، والمجد هو ما يبقى دائما ولا يفنى.
- ٤- التعاون والاتحاد: يعتقد *الرصافي* أن سعادة الوطن لا تتوفر إلا بالاتحاد والتعاون والتظاهر.
- ٥- الحرية السياسية: في رأى الشاعر الاستعباد مهما كان مخالف لطبيعة الانسان، وعصرنا هذا عصر الحرية ويندد الاستعمار، ولهذا في رأى *الرصافي* لا تتحقق الحرية السياسية في العراق إلا برفض الإستبداد العثماني ومكافحة الإستعمار.
- ٦- الاحسان: هو يدعو الأغنياء والموسرين إلى الاحسان إزالة للفقر والحرمان، *الرصافي* كثير ما عرض لمشاهد البؤس والفقر حتى لقب بـ "شاعر البؤساء".
- ٧- الجهاد: *الرصافي* عنى عناية خاصة بالوطن وقضاياه الداخلية والخارجية، وكثيرا ما دعا الناس إلى الجهاد في سبيل الوطن أمام الأعداء.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

- بطل، رفائيل. ١٩٢٣م، **الأدب العصري في العراق العربي**، مصر: مطبعة سلفية.
- الجيوسي، سلمى الخضراء. ١٩٩٦م، **الاتجاهات والحركات في الشعر العربي المعاصر**، ترجمة عبدالواحد لؤلؤة، منشورات اتحاد كتاب وأدباء الامارات.
- الرصافي، معروف. ٢٠٠٦م، **الأعمال الشعرية الكاملة**، بيروت: دار العودة.
- الركابي، جودت. ٢٠٠١م، **الأدب العربي من الإنحدار إلى الإزدهار**، الطبعة الثانية، بيروت: دار الفكر المعاصر.
- طبانة، بدوى. ١٩٨٦م، **التيارات المعاصرة في النقد الأدبي**، الطبعة الثالثة، الرياض: دار المريخ.
- الفاخوري، حنا. ١٩٨٦م، **الجامع في تاريخ الأدب العربي (الأدب الحديث)**، بيروت: دار الجيل.
- مريدن، عزيزة. ١٩٨١م، **حركات الشعر في العصر الحديث**، دمشق: جامعة دمشق.
- المقدسي، أنيس. ١٩٩٨م، **الاتجاهات الأدبية في العالم العربي الحديث**، الطبعة الثامنة، بيروت: دار العلم للملايين.
- يوسف، عزالدين. ١٩٦٠م، **الشعر العراقي الحديث إثر التيارات السياسية والاجتماعية فيه**، بغداد: وزارة المعارف.